قراءة في شعر محمد علي الرّباوي.

د. بن ناجي محمد لخضر
جامعـــــة: البليـــــدة 2

ملخص

يتطرق هذا المقال إلى إبراز أهم المراحل الشعرية التي ميزت ملامح نظـرة الشـاعر المغربي محمد علي الرباوي للحياة و الفن .

إذ يبين هذا المقال البدايات الرومانسية الأولى عند الرباوي و كيف طبع شـعره منذ الوهلة الأولى بهذا الطابع الوجداني الذاتي الـذي جعـل الشـاعر كغـيره مـن الشعراء العصر الحديث مقلدا.

غير أن هذه النظرة سرعان ما اختفت في شعر الرباوي إذ بـرز الاتجـاه الـواقعي بشكل لافت للنظر في أشعاره ،فغلب عليه الهدوء العقلي و منطق فكر راجح عال ،ورغم صوفية الشاعر التي ظهرت في مرحلة متأخرة من أعماله فهو لم يسـتطع أن يتخلص من هذا الهدوء العقلي .

أما من الناحية الفنية فإن شعره تميز بكثـرة ميلـه إلى الطبيعـة و توظيفـه لرمزيـة المكان والمرأة و رموز الـدين كالمسـيح عيسـى ،و هابيـل و قابيـل، وكانـت المـدن المغربية كمراكش والدار البيضاء وفاس ووجدة ملمحا فكريا أصيلا في أشعاره .

وقد زاوج في ثقافته بين فكر أبي العلاء و المتنبي و الشـابي و أبـو ماضـي، كمـا نهل عن (فكتورهيجو) و(بولدير) و(ألفريـد دي موسـيه) و(لامـرتين) و(سـارتر) وكلها قوالب فنية أضافت لأشعاره جمالا خاصا .

Résumé

Cette citation (article littéraire) décrit les étapes poétiques qui caractérisent le point de vue du poète marocain Mohamed Ali EL-rabbaoui à l'art et à

la vie, cette article, qui, nous apparaît les premiers commencements romantiques du poète et comment ses poèmes sont influencés par ce type de poésie , se base sur les sentiments et sur l'affectivité, c'est la cause par laquelle notre poète est devenu comme les autres poètes modernes.
En faite, son orientation du réalisme et sa vision concrète ,qui sont apparus dans ses poèmes, changent son point de vue: le silence Montale et le raisonnement logique étaient les grands traits dans ses poèmes malgré sa réflexion religieuse qui ,précisément, apparaît dans ses derniers œuvres.
Esthétiquement , ses poèmes se caractérisent de son tendance à l'amour de la nature et le fonctionnement du lieu et de la femme, ainsi, les symboles religieux comme CHRIST et le frère CAIN et ABEL.....,aussi ,les grandes villes marocaines comme CASABLANCA,MARRAKECH,FEZ et WAJDA étaient une grande source d'inspiration dans ses poèmes.
En fin ,sa culture de poésie se défini comme un mélange de réflexions de ABOU EL ALLA EL-MAARI ,EL-MOUTANABI,EL-CHABBI,aussi , notre poète est influencé par VICTOR HUGGO et Boulder

ربما كانت التجارب الشعرية هي المحك الحقيقي لمعرفة ذات الشاعر وقـراءة نصوصه مع قدر من التأويل في إبراز حقيقة هذه التجارب، وقد يكـون أفضـل مـا يطالعنا في بداية الحديث عن هذه التجربة وفي انتقال الشـاعر المغربـي محمـد علـي الرباوي و اندماج تجاربه وانتقالها من الرومانسية إلى الواقعية، حديث الشاعر نفسه بالوقوف على ملامح هذه التجربة بقولـه " كنـت أتمنـى أن أجمـع في شـعري ذاتيـة

الشابي، وعقلانية أبي ماضي، لاحظت أن ذات الشابي ذات مريضة رغم سحر خيالها، وأن فكر أبي ماضي فكر مريض رغم عمقه وجمال إيقاعه، ولكي تتم العافية، لابد من دمج الذات في الفكر، وكان حلمي أن أحقق في شعري هذا الدمج"[1].

والحقيقة أن تحقيق هذا الدمج الذي أشار إليه الشاعر إنما هو مرحلة في مراحل مختلفة متباينة تبدأ من أول قصيدة كتبها الشاعر أو من أول ديوان أبان فيه عن ملامح تجربة مخالفة أو مماثله لأقرانه من الشعراء.

والرّباوي واحد من الذين ماثلوا أو خالفوا، وهو الذي بدأ كغيره وفي مراحل مبكرة رومانسيا حالما بل متطلعا إلى تحقيق وجود مثالي به كثير من العناء والمشقة في سبيل تحقيق هذه المثالية.

بدأ الرّباوي مستلهما من الشعر القديم أشعار "أبي نواس" و"أبي فراس الحمداني"، وقرأ من الشعر الحديث "أحمد شوقي" و"الشابي" و"أبو ماضي"، ويقول الشاعر عن قراءته لبدر شاكر السياب.

"بدأت قراءة السياب قراءة نقدية، فساءني أن تكون أغلب رموزه من التراث الإغريقي، فهداني ذلك إلى البحث عن الرموز البديلة في تراثنا الإسلامي فاكتشفت أهمية القصص القرآني، وهنا بدأت أقترب من القرآن الكريم، وأخذت أمعن النظر في شخصيات الأنبياء فأيقنت أنها مادة شعرية قوية"[2].

كما كان الشاعر منفتحا على ما خلفه الأدب الفرنسي من أثار إبداعية عالية فقرأ "Victor Hugo" و"Budlaire" و"Alfred de Muset" و"Lamartine" وقبلهم "Ronstard" وأضاف إليهم "SARTER" و"KAFKA" و"CAMUS" وعن لغة "جاك بريفت" "Jaque Prevert" يقول الشاعر "أدهشني بلغته البسيطة القريبة من اليومي وخياله الخصب الذي يستقي مكونات من أحلام الطفولة"[3]

وقد اقترب محمد علي الرباوي من الشعر العربي الجديد الذي مثله بدر "شاكر السباب" و"نازك الملائكة" و"عبد الوهاب البيائتي"، و"بلند الحيدري" و"صلاح عبد الصبور" و"خليل حاوي" و"أدونيس"، "لكن البياني كان أول من شدني منهم من خلال مسافر بلا حقائب ثم سوق القرية وأباريق مهشمة".[4]

كل هذا يكشف عن انصهار تجربة شعرية متناقضة واضحة أحيانا وغامضة في أحيان أخرى.

ويحمل شعر الرباوي – في مرحلة طفولته الشعرية- أو ما يمكن تسميته بمرحلة بناء الشخصية علامات رومانسية مميزة بها كثير من المعاناة والمكايدة لا بتحقق وجودها إلا داخل وعي الشاعر وفي توظيف الرمز.

وقد كشفت قريحة الرباوي في بداية هذه المرحلة عن مكونات شعرية متفاوة منبعها الحياة النفسية لذات الشاعر.

أهديك باقة من الورد والندى
ضاحكة الجبين نتقته يدي
لـــــو أننـــــي
لـــم أجتـــــن
أوراقه هذا المساء
لضمحل في غد[5]

إلى قوله:

الوقت يمضي
ويح قلبي ما مضى إلا النفوس
وعن قريب يا حياتي نسكن الرموس
والحب بعدنا يموت نور الظهور
فعانقيني زهر الهوى
ما دمت في عمر الزهور[6]

فالقارئ لهذه القطعة الصغيرة يدرك منذ الوهلة الأولى انصهار هذه التجربة في مرحلتها الرومانسية الأولى؟ فقد كان الحب هو صوت الشعراء في بدايتهم وكان الإحساس به جوهر كل لمسة شعرية يبدأ بها الشعراء، إذ مثلت معاناة الحب في كل مراحل الشعر العربي ثورة وجدانية عميقة، ذلك أن قصائده تحفل بقدر كثير من المكايدة والمعاناة، أكسبتها مسحة رومانسية بالغة التفرد.

ذلك أن الشاعر في هذه المقطوعة يريد أن يغتنم كل لحظة سعيدة لأنه يدرك بكل وعي أن لحظات الحب قصيرة وأن زهوره سرعان ما تموت وتذبل، وقد كان الرمز آلية خصبة لهذه التجربة، تجعلك تعيش اللحظة التي يكابدها الشاعر.

"إن الشعر عنده صورة بصرية توقف الزمن لتسترجع ذاكرة ... أصبحت مكنون الذات الشاعرة وشيئا مهما مكونا للحياة النفسية للشاعر، هذه الحياة التي ما كانت لترصد بهذه الطريقة لولا استنادها إلى الرمز بما يستجيب وخصوصية التجربة المعيشية للرباوي".[7]

ويحضر رمز الطبيعة حضورا قويا في تجربة الشاعر – الأولى – فهي رمز للجفاء والقحط كما أنها رمز للصفاء والأمل والنقاء، غير أن الرباوي أحال القدر الأكبر منها إلى جفاء حقيقي، أدركه بوعي عقلي لا بحلم رومانسي. "فلا يمكن من الناحية المنطقية لإنسان يكابد ويعاني أن ينظر إلى الوردة التي تزين العوالم، بل ينظر إلى الشوك الذي يحوم حولها، ولولاه لما بقيت متفتحة صادحة، فالحكم الجمالي ذاتي إذن"[8]

إذ يقول:

تتسلل أوراق الشمس إلى الغرفة
تحـــرق ذاتـــي
ابحث عن باب الشرفة
ألقى عصفورا يصنع عشا من أوراق الشمس
يرسم في صمت قفصا تحمله سنبلة خضراء

أجمــع ذاتــي
اسقط عند قوادم عصفوري
تتغير دمعاتي[9]

هذه الرؤية نفسها يؤكدها الشاعر في قصيدة "جدول" من الـديوان نفسـه إذ أعطى لهذا الجدول بعدا لهذه التعاسة والإنكار الذي عانى منها الشـاعر، فالجـدول رمز للوحشية والخواء النفسي وثورة على الذات والقيود الخارجية.

انـتـفـض الجـدول
وتثاءب لما مر بنا ذات صباح
كانت أوراق بيضــاء
كعقيق الصمت الأخضر
تسبح في رئة الجدول.[10]

إلى قوله:

غطى اليوم الثلج الأجساد
من رحلته اليوم الجدول عاد
يحمل في الجوف شقيق النعمان
وعبيرا يرقص بين خمائله سكينْ أزرق
وأردنا فتح الباب المغلق
كان علينا أن نحل أكثر من مفتاح.[11]

وهكذا فإن حضور الطبيعة كرمز في شعر محمد علي الرباوي قوى جدا فقد وظف البحر والقمر والنخل، فالأول ارتبط عنده بالأمل والجمال والنأي والغربة.

"أما النخلة فقد حافظت على رمزيتها في الثقافة الصحراوية "بالراشـدية" و "ورزازات" على الأخص، إذ هي رمز للشموخ والأنفة والعزة، ولا تهـب نفسـها ذلولا كباقي الأشجار"[12]

ذلك أن حضور الطبيعة عند الرباوي يقترن في الغالب بعالمين، عالم الإنسان المتغير إلى الأسوء وعالم الطبيعة الذي يتغير ويتبدل بهذا التغير الإنساني.

إذ يؤكد الشاعر هذه الرؤية في قصيدة (غضب الأقمار) فهو يجعل من القمر رمزا للصفاء والنقاء، إذ يمنى النفس بالعودة إلى البلدة وإلى دفء القمر ونوره الساكن الهادئ بعيدا عن متاعب النفس ومشكلات الحياة.

ظل الظل الهائج بين الكفين
كبر الصمت القاتل بين الكفين
أمسى الواحد في شرع الناس اثنين
والنور الطاهر أضحى نورين.[13]

حتى قولــه:

طردت من قاع الصوامع الخضراء
لأني أحمل الحب الباسم، الوجه في سلة بيضاء
فكنت صفصافة ميتة الأوراق في جبهة الصحراء لكني سوف أضل واقفا
بين راحتي العاشقين القمر وشوشة ماء 14

ولا نغادر الحديث عن التجربة الرومانسية في شعر الرباوي دون الإشارة إلى رمزية المرأة وما حملته من دلالات مختلفة، ربما اختلفت في محتواها عن نظرة غيره من الشعراء، ذلك أن الرباوي قد أعطى للمرأة بعدا صوفيا وفق منظور إسلامي "فهي ليست وعاءا للاشتهاء كما درج أغلب الشعراء على ذلك، بل تسامى بها شاعرا من المادة إلى الروح إذ ليست مهفهفة غير مفاضة ولا مأكمة يضيق الباب عنها، بل روحا تسامى وصفا على نحو صوفي يدعو إلى الوجد"[15]

فمن قصيدته "وقفة في رحاب مقدسة".

يقول الشاعر:

رَأَيْتُكِ لَمَّا رَأَيْتُ الْجِبَالْ

تُسَبِحُ فِي قُدُسٍ وَجَلاَلْ
وَتَسْجُدُ خَاشِعَةً لِلْجَمَالْ
فَقُلْتُ عَظِيمٌ عَظِيـمٌ عَظِيـمْ

******

رَأَيْتُكِ لَمَّا سَمِعتُ الْهَزَارْ
يُرَتِّلُ شِعْراً طَوَالَ النَّهَارْ
ويَصْمُتُ لَيْلاً كَصَمْتِ الْقِفَار
فَقُلْتُ عَظِيمٌ عَظِيمٌ عَظِيـــمْ.

******

رَأَيْتُكَ لَمَّا رَأَيْتُ البِحَارْ
تَثُورُ مُحَمَّلَةً بِالْمَحَارْ
فَحِيناً سُكُونٌ وَحِيناً دَمَارْ
فَقُلْتُ: عَظِيمٌ عَـظِيمٌ عَظِيــمْ

******

رَأَيْتُ مُحَيَّاكِ فِيمَا رَأَيْتْ
وأدركت ضعفي ثم سجدتْ
وَكُنْتُ غَرِيرًا لَكِنْ صَحَوْتْ
فَقُلْتُ: عَظِيمٌ عَـظِيمٌ عَظِيــمْ[16]

هذا البعد الصوفي في رمزية المرأة عند الرّباوي أخرج تجربتـه الرومانسـية في نظرية المرأة من كونها معادلا موضوعيا للمعاناة أو الوجد الداخلي إلى تأمل عقلي في ذلك الخالق والمخلوق، فأصبحت عنده رمزا آخر للتصـبر والتأمـل الحقيقـي في حقيقة الكون وجوهره، وهو ما خالف فيه الشاعر- حسب اعتقـادي- غـيره مـن الشعراء مما جعله يسمو بذات المرأة في كونها متاعا ومتعة إلى وعي فعلي بالوجود في صورة نقية مقدسة.

والحقيقة أن هذه النظرة المتميزة للمرأة عند الرباوي جعلت من رومانسية الشاعر تجربة شعرية متفاوتة عكست الحس الحقيقي لهذا الشاعر وكأننا بالرباوي كان واقعيا متصوفا منذ مرحلة شعرية مبكرة. هذه الواقعية التي ظهرت في شعر آخر في مرحلة متقدمة من شعر الرباوي.

فبالإضافة إلى الرموز السالفة الذكر، "النخلة"، "البحر" و"القمر" و"المرأة" وكل الطبيعة، بما تحمله من دلالات متباينة، نقف عند رمز قوي شكل الذات الشاعرة الواعية عند الرباوي هذا الرمز هو المكان.

" ذلك أن إحساس الشاعر بالمكان تجلى في الحضور الكثيف للأمكنة التي وظفها في معظم مراحل تطوره الشعري إلى حد هيمنتها المطلقة على أحد دواوينه " قمر أسرير" ذلك أن تنوع الأمكنة وتشكلاتها في قصائده منحتها نوعا من الخصوصية والتميز وأضفت عليها بعدا جماليا"[17]، خاصة وأن الشاعر قد حاول الحفاظ على أسماء هذه الأمكنة دون أن يضيف عليها أي تبديل أو تغيير، كما استطاع أن يعطي لهذه الأمكنة بعدها الحضاري والتاريخي.

"مما جعل هذه الأمكنة تقترب من الرموز التاريخية في اغتنائها واختزانها لكثير من أبعاد رؤيته الشعرية. هذه الأمكنة ما كان استحضارها مجرد تشكيل جغرافي أو بناء هندسي فضائي بل هو إحدى ضرورات العمل الإبداعي وشكل من أشكال التعبير يعكس من خلاله الشاعر عواطفه ومشاعره وتمزقه وتوتره الوجودي، كما يسقط عليها كذلك مواقفه ذات البعد السياسي أو الفكري"[18]

هذه الأمكنة المتعددة التي حظرت في النصوص الشعرية للرباوي من أمثال "الدار البيضاء" و"عين السبع"، و"سيدي قاسم"، و"مكناس" و"وجدة" و"بغداد" و"خيبر" و"القاهرة" و"تل أبيب". "كل هذه الأمكنة ليست مقصودة لذاتها بل في علاقتها بتجربة الشاعر، تشكل الوعي بالذات فالإنسان العارف بالله الذي تأخذه السياحة في طلب المعرفة لا يقف عند المألوف من الأشياء والأماكن بل يبحث عن مكنوناتها وتناقضاتها"[19]

ومما قاله الدكتور سعيدي المولودي عن دلالة المكان في مجموعة – قمر أسرير– للشاعر محمد علي الرباوي "تظم مجموعة قمر أسرير "لمحمد على الرباوي" سبع عشر قصيدة جميعها وبدون استثناء تحمل عناوين مكنية، ينهض فيها المكان بوظيفة أصلية ومركزية في بناء أفنان الدلالة وامتداداتها الممكنة، والعناوين التي تستثمرها المجموعة هي أسماء مواقع ومدن مغربية في الغالب محملة بخصوصيات خاصة عبر سياقات توظيفها المتباينة المتشابكة في كثير من المستويات المرجعية أو الإحالية، غير ما يضيفه الشاعر عليها من قيم جمالية أو صور وقائعية تنبض بالحياة وترسم حدودها التي تحركها مستويات إدراك الشاعر ووعيه الخاص بهذه الأمكنة[20]

ومن مجموعة قمر أسرير– اخترت بعضا من قصيدة الدار البيضاء ، علها تنطق برمزية المكان عند محمد علي الرباوي:

هَذَا الإِسْمَنْتُ احْتَلّ بِعُنْفٍ هَذَا الْمَرْفَأَ
طارَدَ فِي الَجَوِّ طُيوراً..
طارَدَ فِي الْجَوِّ شُعَاعَ الشّمْسِ. وَخَبّأَ
عَنّا بِلَوْرَ القَمَرِ الْحَالِمِ
كُلُ الشُّقَقِ الْمَفْرُوشَةِ
مَا عَادَ الإِنْسَانُ بِهَا يَلْقَى مُتّكَأً.
كَانَ الْحُبُّ قَوِيّاً يَرْبِطُ أَشْجَارَ القَرْيَةِ
لَكِنّ لَهِيبَ الْحُبِّ بِهَا اليَوْمَ قَدِ انْطَفَأَ

****

يَا بَيْضَاءُ
غُرّي غَيْرِي .
سَاخَتْ قَدَمَايَ بِرَمْلِكِ هَذَا الرّطْبْ
تَبْحَثُ فِي حَبّاتِ الرّمْلَةِ عَنّي.

كَيْفَ أَفِرُّ أَنَا مِنِّي؟
كَيْفَ تَفِرُّ البَيْضَاءُ مِنَ الإِسْمَنْتِ
لِتَسْأَلَ عَنِّي؟21

والقارئ في شعر محمد علي الرباوي لا يستطيع المرور على الخصائص العامة فيه دون أن يقف على ذاتية الشاعر فيه، كالإحساس بالغربة والعزلة كما اتخذ قلقه أشكالا متنوعة في شعره، إذ تبرز قصيدة "السندباد المغربي" قلق الشاعر الذي تحول عنده من مكابدة ذاتية إلى إحساس بأزمة الوطن الذي لا يرحم أبنائه المقهورين، إذ تحول "السندباد"، من رمز ذاتي ومعادل موضوعي للشاعر نفسه (الرباوي) إلى رمز للقهر والمكايدة في علاقة الإنسان المقهور الذي لم يحمه وطنه.

هَلْ يَقْدِرُ مِسْكِينٌ فِي بَلَدِي
أَنْ يَدْفَعَ أُجْرَةَ حَفَّارِ القَبْرْ
هَلْ يَلْقَى مِسْكِينٌ مَقْهُورٌ فِي بَلَدِي
مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ الْمَـــالَ
لِيَرْمِيَ جُثَّتَهُ فِي جَوْفِ القَبْرْ22

وهذا السندباد عند الرباوي هو رمز للقلق الجماعي إذ تعدى حدود الفرد والجماعة إلى الوطن ثم انتقل به إلى الأمة العربية عامة، فأصبح رمزا مشتركا للقهر والمعاناة والمكابدة، فهذا سندباد الرباوي "القومي" يكرر نفسه استجابة لطبيعة الحياة العربية، ومما قاله الرباوي أثناء التطبيع مع إسرائيل، وما أصابه المواطن العربي من قهر وأحزان أثناء هذا الاستسلام.

تَلُّ أَبيبْ
تَتَسَكَّعُ فِي طُرُقَاتِ دِمَشْقْ
وَتَدُوسُ حَوَافِرُهَا كُلّ شَوَارِعِ بَيْرُوتْ
وَالْقُدْسُ الأَشْرَفُ
مَسْجِدُهُ الْمَيْمُونُ بِنَايَاتٌ مِنْ وَرَقٍ

أَذِنَ اللَّيْلُ لَهَا أن تُرْفَعَ
فِي سَاحَةِ وَجْدَةَ
أَوْ سَاحَةِ طَنْجَةَ
أَوْ سَاحَاتِ الدَارِ البَيْضَاءْ

****

تَلُّ أَبِيبْ
تَجَلَّتْ فِي هَذِي السّنَةِ الشّهْبَاءِ[23]

وليس الوطن وحده عند الرباوي رمزا لدلالة الحرمان والقهر والاستبداد بل استطاع الشاعر أن يرتقي بمجموعة من الرموز للدلالة على الملل والرتابة في الحياة، وهي كلها رموز على عادته يستعملها وفقا لتجربته الخصوصية التي أثرت في البوح الشعري لديه إذ أن الهم الدفين الذي يرفل جسد الرباوي ينتفض دما قراحا يجمع بين الحلم والواقع، كل شيء مكرر إلا الأمل.

إذ يقول:

هَادِئَةٌ كَالْعَادَةِ هَذِي الْمَقْهَى..
لَمْ يُقْلِقْهَا بَعْدُ شُعَاعُ الشّمْسِ الشّارِدِ
اَلزُّبَنَاءُ هُمُ الزُّبَنَاءُ..
مَوَاجِعُهُمْ اِرْتَطَمَتْ بِمَقَاعِدِهَا الْمَبْثُوثَةِ
بَيْنَ حَنَايَا أَضْلُعِهَا الْمُنْطَفِئَهْ
لاَ أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ..
لاَ أَحَدٌ يَتَحَدّثُ..
لَوْ يَصْرُخُ..
إِلاَّ هَذِي الشّاشَهْ
صُوَرُ الْقَتْلَى
وَأَنِينُ الْجَرْحَى 24

وهكذا تتكرر أصوات المقهورين و المفجوعين، وسماع القتلى يدوي في أركان القاعات وفي شاشات التلفاز في زمن بغيض لا يرحم.

إن المقهى عند الرباوي رمز للكآبة والرتابة في كل شيء إلا الأمل، رتابة في قتل المسلمين في فلسطين وبغداد، وباقي البلاد الإسلامية حتى أننا تطبعنا على سماع "مسلسل الشرق الأوسط" بكل ما تحمله العبارة من لذة

وألم، وكل يوم نرى حلقة من حلقاته من دون أن يبقى لنا من المسلسل شيء إلا رسمه هذا هو المشهد الذي تبقى عليه قضايانا العربية مجرد صور ومشاهد رتيبة معادة مكررة حتى أمست أمرا مألوفا.

ومكن أن تقول أن هذا الإحساس بالمدن وهذه الرتابة تحولت عند الرباوي إلى نوع من الاغتراب الذاتي عكس الشاعر عن مذله طبيعة المواجهة بين هذا الموضوع ذلك أن اغتراب محمد على الرباوي يختلف كل الاختلاف عن الشعراء المعاصرين في النظر لطبعة هذا الاغتراب ذلك أننا ندرك أن أسباب الاغتراب في الشعر المعاصر مردها لتأثر العديد من شعراء العصر بالشعراء الغربيين أو بعض الروائيين و المسرحين الوجوديين "إذ تعامل الشاعر العربي الحديث مع الاغتراب بأساليب مختلفة كالسفر أو إدمان الخمرة، الكتابة، لكن الرباوي وجد خلاصة في الدين، فهو الملاذ والملجأ عندما تغلق النوافذ"[25]

وهناك تباعد جلي بين الشاعر وذاته وحنين شوق إليها، وتتعمق هذه الغربة حين تصبح القطيعة بين الذات والجسد والروح والمادة يقول الشاعر من قصيدة "كأسس من رماد":

أحمل فوقي جسدي
ولكن إلى أين ؟
أجوب طرقات مدينتي الشهباء
يدخل الملل القارس إلى غابة ذاتي
ألقي جسدي المنهار

بركن من أركان المقهى[26]

وحين تنغلق كل الأبواب في وجه الشاعر ويزداد إحساسه بالقلق وبالملل ويصدم بجدار اليأس ويتطور عذابه الجسدي والنفسي، فإنه حينئذ لا يشعر بالاغتراب الوجدي، وهذا الانفصام الحاد بين مكوناته الداخلية وعالمه الخارجي وبين ذاته وجسده وبعد أن يتحرر من شهواته الذاتية اللا متناهية يقرر بكل ما أوتي من قوة أن يطلب عون الله راجيا منه العفو والغلبة على هذه الذات الحقيرة.

إذ يقول:

هل أقدر أن أعبر هذي الأدغال الفتاكة
إن علي أنت تخليت؟
لماذا يا مولاي خلقت هلوعا
إن مس جناني المحل جزوعا
أو مس جناني الوبل جزوعا
أدركني
من وسواس الخناس، وعلمني
أن أملأ دنياي بحمدك[27]

وقد حملت غربة الرباوي وجها آخر إلى جانب هذه الغربة الوجودية، ذلك أنه تغرب بين أحضان وطنه، وهو الذي لم يقطع بحرا ولا برا خارج وطنه المغرب ومع ذلك قد اغترب في مدينة (فارس) العريقة التي تبعد أميال عن مدينته الأصلية (وجدة).

إذ يقول:

أنا لَمْ أَقْطَعْ بَحْراً،
لَمْ أَرْكَبْ بَرّاً،
لكِنّي في فاسَ تَغَرَّبْتُ
وفي إسْفَلْتِ شَوارِعِها

كالكَأسِ تَحَطّمْتُ
وداسَتْ أرْجُلُ كُلِّ الرِّجْلَ زُجَاجَةَ ذاتِي
هلْ أحَدٌ يا فاسُ بَكى وتَوَجَّعَ مِنْ ألَمٍ؟
ضُمِّنـــــــي
حتّى أشْعُرَ أنّ ضُلُوعِي
تتكَسَّرُ ضِلْعاً ضِلْعاَ،
إنّي في عَيْنَيْكِ تَغَرَّبْتُ
تَساءَلْتُ مِراراً..
ماذا يَفْصِلُ وَجْدَةَ عَنْ
رَبَوَاتِكِ يا فاسُ المُغْلَقَةَ المَفْتُوحَةْ؟[28]

ويكثف الرباوي من اغترابه داخل وطنه (المسروق) الذي يقابل الإحسان بالإساءة، ورغم ذلك فالوطن عزيز على الشاعر لا يستطيع أن يرحل عنه أو ينساه.

إذ يقول:

يا جسدي
أنا ما زِلْتُ على كتِفي أحْمِلُ أحْجاراً
عندَ طُلُوع الغَضَبِ الجَبّار على بَلدِي
المَسْروقِ جِهاراً. بَلَدِي أعْشَبَ وادِيهِ وَنَمَّ
به الزَّهْرُ الفاتِنُ، لكنْ أسْألهُ خُبْزاً
يُعْطِيني حَجَراً. بَلَدي هذا المَسْروقُ وإنْ
جَارَ عَلَيَّ عَزيزُ، والأهْلُ وإنْ قَطَعُوا
حَبْلَ الوَصَالِ عَلَيَّ كِرامُ.[29]

وقد ضاق الشاعر طعم التيه والضياع كما اعترف بهذا في قوله:

عِشْتُ عُمْري تَائِهاً وَسْطَ الفَلاَةِ

تُحْرَقُ الأيّامُ صَفْصَافَةَ ذاتِي،
وتَحُطُّ الرَّمْلَ فَوْقِي، وأنا
عَبَثاً أبْحَثُ عَنّي في حَيَاتِي. [30]

وهكذا تعددت مظاهر الاغتراب في شعر الرباوي وللقارئ أن يلحظ الصيغة الصوفية ظاهرة للعيان في شعره، إذ يرى شعور الرباوي بالذنب والخطيئة، وكأنه ارتكب معصية، وكأن به نوع من الاغتراب الأخلاقي الذي يفضح نحو العودة إلى الصواب والرشد والتحلي بالأخلاق الإلهية وهي الرضا بالقضاء والقدر وما أعطى الله، ومن الظواهر البارزة في شعر الرباوي ظاهرة الحزن، ولعل مصدره يعود إلى إحساس الشاعر بالانفصام الوجودي المؤسس للاغتراب والإنسان، "وهو ما يفسر عن عمق المعاناة والحزن الشديد الذي يخترق جسد الصوفي بكامله والذي يرافقه حتى الموت"[31]

يقول محمد الرباوي من قصيدة "أوراق مكية".

اَللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورَا.
فِي سَمْعي نُورَا.
فِي بَصَرِي نُورَا.
وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورَا.
أَنْتَ النُّورُ
وَمِنْكَ النُّورُ
وَإِلَيْكَ النُّورْ
هَذَا الْمَساءَ إِلَى رابَغِ الْخَيْرِ
فَاخْلَعْ تُرَابَكَ وامْضِ
حَبِيبُكَ يَدْعُوكَ
لَبَّيْكَ أَنْتَ حَبِيبِي
لَكَ الْحَمْدُ

إذ أَخَذَتْنِي يَدَاكَ إِلَيْكَ
فَلاَحَ لِعَيْنَيَّ بَيْتُكَ
حَيْثُ الفَرَاشَاتُ [32]

وعن ملامح التصوف في شعر محمد على الرباوي يقول الدكتور مصطفى فرحات بمداخلة ألقيت بمسرح محمد الخامس في نوفمبر 2008. "و تبقى الكتابة الصوفية جزء من وجود الصوفي و تجربتة لأنها ملاح مقاومة للزمن و مجال تثبيت المأساة وإنها لغة الألم المضاعف: الحلم الموت"33

إذ يقول:

أيتها الجنية المقدسة
من أي عالم أتيت جمرة مقدسة
فانفتحت بوابة القلب الجريح
زفزفت حمامة بين ضلوعي
ثم مدت صدرها العاري إلى الهواء
من أي بحر جئت بالمفتاح
من أي جزيرة أتيت بالضياء
جمعت أشلائي مني
فاستويت نخلة
تفجرت عيدانها بالغناء . 34

ويؤكد الدكتور علي القاسمي ميل الأدباء في المغرب الأقصى إلى هذه النزعة بقوله: "لكننا في عصرنا الحاضر ... حين إزداد قلق النفس الإنسانية في بحثها عن ماهية الذات ومصيرها، فلا غرابة أن نجد هذا النوع الأدبي يزدهر في المغرب وهو قطر اشتهر قديما وحديثا بانتشار الطرق الصوفية الكبرى فيه كالطريقة القادرية التي تنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلالي (561هـ)" 35

وهكذا استطاع محمد علي الرباوي أن يخلق لنفسه منهجا شعريا خاصا أساسه هذه النزعة الصوفية التي أعلنت عن نفسها من خلال تطور التجربة الشعرية عنده ومن خلال تقدم الشاعر في السن، فإن كان أقرانه من الشعراء المعاصرين يختفون وراء الرموز والأقنعة والإسقاطات المختلفة فإن محمد علي الرباوي قد قرر الإبحار في هذه النزعة الصوفية التي جعلته متميزا في نظراته الذاتية وإلى عالمه الخاص وإلى العالم الآخر من حوله.

"أنه يقرر الإبحار في التصوف والسريالية فتكون القصيدة متجاورة مع التاريخ تشاركه وتجاوره أو تنشر الارتياب فيه" 36

وهكذا استطاع محمد علي الرباوي بهذه المسحة المتميزة (الصوفية) أن يقيم الأسس والمفاهيم والإشكالات، كما أعطى لتجاربه مسحة جمالية خاصة من خلال هذه النزعة.

"وهو بهذا كان يهدف إلى تقديم موضوعه وكشف الخيوط التي تربط بين الفطرية وبأصولها المعرفية المباشرة وغير المباشرة لتحقيق الفهم الصحيح لجمالية الأدب". 37

و لا أنهي هذه القراءة السريعة في شعر محمد علي الرباوي دون الوقوف على ابرز الخصائص العامة في شعره.

- يكشف شعر الرباوي عن تمكن مقتدر عن تجربة شعرية فائقة اذ تضعك قصائده على منهج شعري ناضح متفرد في امتلاكه لحس اقاعي مويسقي متميز اذ أن هيامه الاقاعي لا حدود له و هذا كما ظهر جليا في أغلب مراحله الشعرية، و ربما يرجع ذلك لثقافة الشاعر الشخصية التي جمعت بين الحاضر والماضي.

- وقد تجلى الموروث التاريخي في استخدام الشاعر لشخصيات تاريخية قديمة ومعاصرة ارتبطت بالأزمنة والأمة والوطن كشخصيات "عاد" و"ثمود"، و"قيصر" و" كسري" و"بلال بن رباح"، و"عمر بن الخطاب"، غير أن الموروث الأسطوري الشعبي يبقى الغالب في أشعاره.

- قوة وعي الشاعر لمفهوم المكان وإحساسه العميق به إذ يبقى توظيف المدن والأمكنة في شعر الرباوي إشارات لحالات تاريخية، أو سياسية، أو نفسية متباينة تكشف في حقيقة الأمر عن تصور عميق لما ترصده الشاعر من ملاحظات لأزمات عاشها الوطن العربي الكبير أو لوطنه (المغرب) أو لمراحل نفسية شكلت حسا وجوديا في مراحل شعرية مختلفة من حياة الشاعر، فكان توظيف "مراكش" و"تطوان"، و"البيضاء" و"بغداد" وغيرها مسحة شعرية خاصة عند الرباوي.

- فقد لعب الموروث الصوفي دورا هاما في صناعة تجارب الشاعر فكاد توظيفه لشخصيات الصوفية والرموز الصوفية لغة صوفية خاصة كشف بها عن معاناته المعاصرة الصوفية.

الهوامش :

1. محمد علي الرباوي، (الأعمال الشعرية الكاملة- رياحين الألم)، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، 2010، ص7.
2. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
3. المصدر نفسه، ص 10.
4. المصدر نفسه، قصيدة أغنية للورد، ص 65.
5. عن مقال نشر في مجلة (الحوار المتمدن) لسعيد المولودي عدد 2438 بتاريخ 18/ 10/ 2008 ص 11.
6. المرجع نفسه، (الحوار المتمدن) ص 16.
7. محمد علي الرباوي، الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول، قصيدة (حكاية)، ص 358.
8. المصدر نفسه، ص 359، 360.
9. منصف عبد الحق الكتابة والتجربة الصوفية، الدار البيضاء 2002 ص 77.
10. محمد علي الرباوي، الإعمال الشعرية الكاملة الجزء الأول، (غضب الأقمار) ص 242.

11. منصف عبد الحق الكتابة والتجربة الصوفية، ص 79.
12. محمد علي الرباوي "الأعمال الكاملة" الجزء الأول (وقفة في رحاب مقدسة) ص 286 – 269
13. د. حسن العوفي عن مقال تحت عنوان "محمد علي الرباوي الجوهر النفيس" نشر في مجلة "العالم القافي" 5 يونيو 2008 ص 10.
14. المرجع نفسه ص 11
15. عن مقال نشر تحت عنوان دلالة المكان في مجموعة (قمر أسرير) للشاعر محمد علي الرباوي، بقلم سعيد المولودي، وجدة المغرب، ط1، 2012 ص 36.
16. المرجع نفسه ص 38.
17. محمد علي الرباوي الأعمال الشعرية الكاملة ج2 منشورات وزارة الثقافة المغرب 2010 ص196، 197.
18. المصدر نفسه ص 384.
19. محمد علي الرباوي الأعمال الشعرية الكاملة الجزء الأول (قصيدة تل أبيب) ص 484.
20. المصدر نفسه (قصيدة المقهى) ص 383.
21. عبد القادر الحجاري جريدة الحياة المغربية، عدد 85 سبتمبر 2001، ص101.
22. محمد علي الرباوي الأعمال الكاملة (قصيدة المقهى) ص 384.
23. محمد علي الرباوي الأعمال الكاملة الجزء الثاني ص 21.
24. محمد علي الرباوي الأعمال الكاملة الجزء الأول ص 333.
25. المصدر نفسه، الصفحة نفسه،.
26. المصدر نفسه ص 196.
27. منصف عبد الحق الكتابة والتجربة الصوفية، ص 9.
28. محمد علي الرباوي الأعمال الكاملة (أوراق مكية) ص 186.
29. مصطفى فرحات، ملامح التصوف في شعر محمد علي الرباوي عن مداخلة ألقيت بمسرح محمد الخامس، نوفمبر 2008.
30. محمد علي الرباوي، مزامير الشيخ الكامل (صلاة الحب) فاس المغرب، 2010، ص 05.

31. د علي القاسمي، الحب والإبداع والجنون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء المغرب، 2006 ص 136، 137.
32. ذ محمد علي الرباوي - السابق
33. د محمد جاسم الموسوي، بثينة خالدي، الأدب العربي الحديث، الدار البيضاء، المغرب، 2010 ص 154.
34. محمد علي الرباوي - السابق
35. عادل بوحوت عن مجلة عالم الفكر (جمالية التجارب في الأدب) المجلد رقم 42، مارس 2014 ص 09.
36 د حسين الطربيق، القصيدة العربية المعاصرة بين الغنائية والدرامية، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية تطوان المغرب، 2005، ص .12
37 المرجع السابق .